ديمقراطية التيار القومي في العراق ؟

اود ان اوضح ابتداء اني مواطن عراقي انخرطت في العمل السياسي القومي في العراق منذ اواخر الخمسينيات. وما أكتبه ليس من قبيل توزيع اللوم، بل هو محاولة لمراجعة المواقف والاستفادة من تجاربنا. كما لا يعني قَصر الكلام على التيار القومي العربي إعفاء القوى الاخرى من المسؤوليات. واعتقد اننا جميعاً كعراقيين، مارسنا العمل السياسي بشكل من الاشكال، نتحمل بدرجات متفاوتة مسؤولية العثرات والمآسي التي مر بها وطننا.

ازداد الحديث عن القومية العربية و العروبة تيارها القومي، ولكن دون ان يكون هناك وضوح لهذه المفاهيم السياسية، الامر الذي جعل من هذه المصطلحات بمثابة شعارات او مظلات لمضامين سياسية واجتماعية واقتصادية غامضة ومختلفة الى حد التناقض. كانت الحركة العربية المتمثلة بالثورة العربية بزعامة الشريف حسين في الحجاز عام 1916، حركة قومية عربية تهدف الى الدعوة الى استقلال و فك ارتباط العرب بالدولة العثمانية وتوحدهم في دولة عربية واحدة. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف لجأت قيادة الشريف حسين الى التعاون مع بريطانيا الامر الذي أدى في نهاية المطاف الى بسط السيطرة البريطانية على أجزاء مهمة من المشرق العربي واخضاع العراق وفلسطين للانتداب البريطاني.

وبعد قيام ثورة العشرين استلم الحكم في العراق ممثلو ذلك التيار القومي، والمعروفين باسم الرعيل الاول، بقيادة الملك فيصل الاول. كانت الخطوات الاولى للحكم تبشر بنظام برلماني دستوري، ولكن سرعان ما تدهور الوضع ليُفرَغ الدستور والنظام البرلماني من الكثير من معانيه الحقيقية. مما جعل رجال " الرعيل الاول " وخاصة بعد وفاة فيصل الاول المفاجئة، فيما بعد هدفاً لقوى جديدة رفعت شعارات القومية العربية و العروبة وقامت باسم تلك الشعارات حركة 2 مايس عام 1941، والمعروفة بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، التي اعتمدت على ضباط الجيش ولجأت الى التعاون مع المانيا الهتلرية وتمجيد المفاهيم العنصرية في سبيل التحرر من بريطانيا ومن سياستها في مساندة الصهيونية في فلسطين.

وقد تبلور في الخمسينيات تيار قومي جديد في العراق متمثلاً بحزبي الاستقلال والبعث العربي الاشتراكي اللذين شاركا في جبهة الاتحاد الوطني التي اعطت الشرعية لثورة الجيش في 14تموز 1958. اصبح هذا التيار القومي، بعد الثورة، يعيش دوامة التنافس على السلطة من خلال التحالفات مع الضباط المعروفين بعدائهم للشيوعية، وبات العداء لها و تأييد الرئيس عبد الناصر السمة البارزة في التيار القومي في العراق، كما برزت تكتلات جديدة قومية باسم حركة القوميين العرب و الحزب العربي الاشتراكي وغيرها. لم يتمكن هذا التيار القومي بشقيه العسكري والمدني من بلورة فكر سياسي يعالج القضية العراقية بل لجأ الى تبنى صيغة جاهزة تمثل بزعامة عبد الناصر ومعطياتها الفكرية والسياسية. و تعاطف مع هذا التيار القومي معظم العناصر اليمينية والرجعية المعادية لليسار العراقي بمختلف فصائلة

واحزابه. واذا كان لحزب البعث فكرا وممارسة ديمقراطية سابقة في سوريا، حيث انه قد خاض المعارك الانتخابية البرلمانية واستطاع ايصال اكثر من 16 نائباً الى المجلس النيابي انذاك. فان الحزب في سوريا وبالتالي في العراق انساق وراء اللعبة العسكرية والانقلابات، مضحياَ بالمفاهيم الديمقراطية.

ونجح حزب البعث في العراق، تحت شعارات العروبة والوحدة، وبالتعاون مع ضباط محسوبين على قوى قومية من اسقاط حكم عبد الكريم قاسم بانقلاب عسكري في 8 شباط 1963، وليس خافياً الان على احد ان بعض القوى الغربية قد رحبت وربما ساعدت على هذا الانقلاب وهذا ما قاله وكتبه فيما بعد علي صالح السعدي احد قادة البعث انذاك. وبدلاً من ان يعمل البعث على وحدة الصف القومي في العراق ويتخذ الخطوات الحقيقية من اجل الوحدة، وجدنا ان ممارساته كانت فجة ومنفرة للشارع العراقي وللقوى السياسية الاخرى بما فيها القوى والاحزاب القومية الاخرى ناهيك احزاب اليسار. باختصار، لم تكن ممارسة البعث الحاكم في عام 1963 ديمقراطية وبالتالي أزيح بنفس الاسلوب الذي وصل به الى السلطة، أي بالقوة. ومما تجدر الاشارة اليه ان القوى والاحزاب القومية الاخرى حولت نشاطها بعد مجيء البعث للسلطة الى التأمر عليه واسقاطة عن طريق استخدام الجيش وذلك بالتحالف وطلب العون من مصر الناصرية. ومرة اخرى صعد في تشرين الثاني 1963 نمط عسكري اخر للسلطة باسم القومية والعروبة بقيادة عبد السلام عارف. كانت الميزة السياسية الغالبة للتيار القومي (بأستثناء البعث) في عهد عبد السلام، هي التبعية الكاملة لعبد الناصر، حتى باتت السفارة المصرية في بغداد المصدر الاول للتوجيه بالنسبة لهذا التيار، كما ان تشرذم هذا التيار الى احزاب وكتل مختلفة جعلهم يتسابقون لكسب ود ورضى عبد الناصر، الذي كان يمثله عملياً جهاز المخابرات، وكتاب امين هويدي " كنت سفيراً في العراق" مليء بالشواهد.

لم يكن عبد السلام عارف يؤمن بالديمقراطية ولم يكن قادراً على استيعاب التيار القومي العربي في العراق، إلا ان بقاء هذا التيار تحت هيمنة عبد الناصر جعل مهمته اسهل وذلك بالتحالف مع عبد الناصر على امل ان يمنع الاخير تآمر مناصرية من القوميين في العراق علي النظام. وفي الوقت نفسه ترك لاجهزة الامن والمخابرات العسكرية حرية مطاردة واضطهاد بعض عناصر البعث، رغم قوميتها، واليسار العراقي كذلك.

ومرة اخرى سقط النظام رغم ادعائه العروبة والقومية، فاطيح بعبد الرحمن عارف وجاء البعث مرة اخري الى الحكم بواسطة انقلاب عسكري. طرحت السلطة الجديدة شعارات ديمقراطية وجبهوية للمرة الاولى، كما افلح في التوصل الى اسس بدت جذرية لحل المشكلة الكردية بموجب اتفاق 11 اذار 1970، وتبع ذلك قيام جبهة شاركت فيها قوي مختلفة من ضمنها الاكراد والشيوعيين، ولكن سرعان ما تلاشى هذا التفاؤل بتسلط صدام حسين على الحكم وانفراده بالسلطة وبدلاً من الاستفادة من تجربة 1963، كرس صدام نظام رعب وارهاب لم يعرفه الشعب العراقي من قبل ولا اي شعب عربي اخر، معتبراً ان ذلك هو الضمان الاساسي لبقائه في السلطة وعدم تكرار حركة تشرين الثاني 1963. ولجأ صدام حسين باسم العروبة والقومية الى شن حرب عنصرية على ايران، وممارسة

سياسة طائفية بلغت حد تهجير الآلاف من سكان العراق بدعوى "التبعية"، وبعد ثمان سنوات من حرب مدمرة مع ايران، كان الغرب والولايات المتحدة المستفيد الاول منها، لجأ صدام الى احتلال الكويت باسم تحرير فلسطين !! ثم قرر الاعتراف بمعاهدة 1975 التي عقدها مع شاه ايران وخاض الحرب المدمرة مع ايران للتخلص من قيودها.

كانت الاحزاب والقوى القومية المختلفة في العراق قد رفعت شعارات العروبة والقومية والوحدة العربية، لكنها في الممارسة فشلت في تحقيق اي انجاز يذكر على الصعيد القومي الوحدوي العربي. بل لا نغالي ان قلت ان المشرق العربي عاني على ايدي هذه القوى اكثر من معاناته من القوى الاخرى.

ان القاسم المشترك في تجارب التيار القومي في الحكم هو غياب الممارسة الديمقراطية. ان الديمقراطية تبنى على تقاليد وضوابط وممارسات وليس مجرد قرارات شكلية وخطب جوفاء.

والسؤال الكبير الذي يحق لكل مواطن عراقي في ضوء هذه التجارب ان يسأله هو : ماهي الضمانات لإقامة نظام ديمقراطي في العراق على يد قوى المعارضة التي تعمل اليوم على التخلص من نظام صدام واستلام السلطة بعد الاطاحة به. ؟

ماهو السبيل الى عدم تكرار اخطاء الماضي ؟

القدس العربي، لندن 30 كانون الاول 1990